

معروف الرصافي

الشاعر المجدد والمفكر الثائر

الوقت ظهراً ، واليوم الجمعة في السادس عشر من آذار (مارس) ١٩٤٥ .
كنت أسير في موكب حاشد ضاقت به دروب الأعظمية من ضواحي بغداد .
وأكثر هذا الخلق من الشباب الواعي يتدافعون مع جموع الدهماء ، متسابقين
إلى حمل نعش الشاعر الذي غنى بأحاسيس أمته وهي تتوجع بقيود الاستبداد
والاستعباد ، وصور لها بقصيده مآسي الجمود وظلمات الجهل ، وعبر بالخانة عن
نشدانها الحرية والاستقلال والمجد . في هذه اللحظات ونحن نشيع جثان معروف
الرصافي إلى الحفرة التي كتب على ابن آدم أن يستريح فيها الراحة الأبدية
كان يساورني سؤال ملح :

ما نبغ الرصافي واستفاضت شهرته في البلاد العربية ، وقد أذاعت أشعاره
صحف مصر منذ أربعين سنة إلا ولح المدركون فيها ظاهرتين سجلهما تاريخ
النهضة الادبية الحديثة عندنا : الأولى نصوع الديباجة وشدة الأسر في النظم
وفصاحة الكلم ، والثانية نزعة التمرد على الظلم وتعشق الحرية مع فهم صحيح
لقومات الحياة . فكيف نحلل الظاهرتين في هذا القتي ؟ ومن أين تأتيا له وهو
من نعلم في ثقافته وبيئته ؟

يولد النابغة ، ويولد معه عالمه الخاص ، فتلتصق مواهبه ، فإذا هو يرى
بعينه مالا يراه بنو جلدته ، ويسمع بأذنيه مالا يطرق سمع إخوانه ، وتحرق
نظراته آفاقاً بعيدة وينفذ فكره إلى أعماق سحيقة . ومده حال ننطق على الرصافي ؛
فقد جدد ديباجة الشعر العراقي ، فحاك أثره في وادي الرافدين أثر البارودي في
وادي النيل ، مع أنه تخرج من المدرسة العتيقة وشب وترعرع في جو الأدب التقليدي
من السجع المتكلف والنظم المفكك والنسج المهمل ، وبرز مفكراً جهورى الصوت
في قولة الحق من بيئة تملكها الخنوع وغشى على قلوب أهلها طغيان الحاكمين
بأمرهم من فلول الغزاه والمغيرين .

ولكن لا ! إن هذه المواهب التي أفرغها الخلاق في معروف الرصافي إنما هي انتفاضة من عبقرية الأمة العراقية ، تجود بها الأزمان بين عصر وعصر ، وتختار لسطوعها شخصية تكون عصامية حيناً ، وعظامية حيناً آخر .

فهذا الشعر المجلجل بفصاحة الضاد ، قد تحدّر إلى شاعرنا من وحى سماء السواد بزرقها الصافية ، وتموجات دجلة والفرات في لججها المصطخبة ، وهذه المعاني الكثيرة قد تناقلتها الأجيال إلى أديبنا ، من سليقة أمراء الشعر العباسي ذي الطابع المذهب في تاريخ الأدب .

أما الثورة على عسف الطغاة ، ومصاولة الاستبداد ، فهذه النفس العراقية ، وهذا الإباء العربي ، وهذه الكرامة القومية ، التي عجزت سيوف القاهرين وحديدهم ونارهم عن أن تعرى الشعب منها ؛ فقد تتعب الحوادث الجسام الأمة الكريمة فتسكن فترة من دهرها ولكنها لا تنحل إلى الأبد ، وقد تهمد جذوة الشم حقبة من السنين غير أنها لا تنطفئ تماماً ، حتى إذا أرهقت الأيام النفوس ، واعتصرت المظالم القلوب ، تفجرت ينابيع السجية الأصيلة ، فظهر بطل الفكر في الميدان ، وطلع وجه القائد على الناس ، وارتفع صوت النابغة في قومه .

ها نحن أولاء نتطلع إلى الماضي غير البعيد نريد أن نتعرف حال العراق قبل نصف قرن أو يزيد قليلاً ، لتتخيل البيئة التي ولد فيها معروف ونما ، وشدا الأدب وتلقف المعرفة ، فتهتدى إلى بواعث الحس في الشاعر ، ونستبين موجيات الوعي في الفكر .

بلاد صحراوية ، أهملتها السلطنة المهقّة ، إذ عفى عليها الزمن ، فحملت بعد شهرة ، وخربت بعد عمران ، وذوت بعد ازدهار . فيها أنشأت الدول الناهضة حضارات خالية وسمت تقدم الإنسانية بمياسم العز والسؤدد في العهد القديم والعصر الوسيط . وعليها كلست الحكومة العاجزة غبار الإهمال ، وأتقاض المغازي ، وتهديم الفتوح .

وكان استبداد المالك من باشوات بغداد ووزرائها في غفوة الانحطاط لم يكن كافياً ، فمزقت تضامن الشعب غارات القبائل وشحنائها المتواصلة ، وقد استخفت بهيبة الحكام ، وأغراها ضعف الدولة في قاعدتها القصية ، فظل هذا القطر الغني

بجاراته الطبيعية غارقاً في سباته حتى بعد أن تنبّهت مطامع الاستعمار إلى خطورته وحيويته في طريق الهند . وقامت في أذهان حراس الإمبراطورية مشروعات الخط الحديدي الذي يربط جزرهم بمستعمراتها الضخمة ماراً بوادي الفرات ، وأخذت اللجان الدولية التي تقصده لحسم النزاع على الحدود بين إيران ودولة بني عثمان تكتب لحكوماتها التقارير المفصلة عن هذه الكنوز المدفونة من بعيد . وقام أصحاب الأموال يحسبون لأسواق بين النهرين ألف حساب ، وشخصت عيون المنقبين الأثريين إلى ما تغطيه أطلال نينوى وخرائب بابل من أسرار لما ارتفع على هضابها من عروش وهياكل .

في هذه الفترة هبت على الشرق الأوسط نسمة من يقظة فكرية بدأت بحملة نابليون على مصر ، ونهض مجد على باشا بأعباء مملكة جديدة أرادها عربية شرقية تتدرج بعلوم الغرب وفنونهم ، لتنافس سلطنة عثمانية إسلامية وهنت منها القوى وأخذتها رعشة الانهار . واقرنت هذه الأحداث بمجيء البعث الدينية وإرساليات التعليم الأجنبية من أوروبا ، فانفتحت للتمدن الأوروبي مسارب إلى الشرق . ولكن العراق بقي منعزلاً أول الأمر عن كل هذا النشاط لبعد رقعته عن مراكز النهضة الغربية ، ثم أخذ يتأثر بعض الشيء لصلته بالأقطار العربية الأخرى في اللغة والدين وأصول الثقافة القديمة وبخاصة الشام ومصر .

أما الحياة الفكرية العراقية في المرحلة التي نتحدث عنها فكانت محصورة في محافل الدين وحلقات المساجد . ومجالاتها في الغالب بغداد والنجف والحلة والموصل ؛ وفي الأخيرة ولدت فكرة الثقافة الجديدة في المدرسة والمطبعة اللتين أسسهما المبعث الفرنسي للآباء الدومنيكيين ، وكان الأدب شرعة الواردين عند القوم ومهوى أفئدة النابهين ؛ لأنه يعتلج في القلب ، وأدواته الحس والذوق ، وعماده الموهبة الفطرية . وطبيعي أن يتقدم الشعر على النثر لهذه العوامل ، ولأن الماتم الحسينية في مدائن الفرات يهزها الانشاد ، ومجالس البيوتات ودواوين الولاية في حواضر دجلة تحفل بالنظم ، ويفضل هذين المجالين احتفظ العراق بروح العزة الموروثة ، واندفع إلى استحياء المجد التليد ، وتناقل المفاخر العربية تحت نير السيطرة التركية ، فصان اللغة الفصحى من الاندثار في ربوعه . أما

الأسلوب والطريقة، فكلاهما تقليديان، يتأثر الناظمون بالسلف ويترسمون خطوات الشعراء القدامى، للصنعة فيه آثار بارزة، والتكلف باد مفضوح. ويكنى أن أذكر ثلاثة من شعراء هذا الطور بل أعلامه، وهم عبد الباقي العمري، وعبد الغفار الأخرس، والسيد حيدر الحلبي، ليحكم الملمون بتاريخ الأدب العربي في القرن التاسع عشر على أن معروفاً الرصافي سباق في هذه الحلبة، يصح لنا أن ننتعته بالمجدد الذي رجع ديباجة الشعر العراقي إلى روعتها أو بعض روعتها بعد أن أخلقتها عصور التقهقر.

ولد معروف في بغداد سنة ١٨٧٥ في أسرة لا مال لها ولا نسب. أبوه عبد الغنى محمود ينتسب إلى عشيرة كردية تقطن بين كركوك والسليمانية تسمى (الجبارية). وفي زعم العشيرة أنها علوية النسب، ويسلم لها أهل كردستان بذلك. فان صح ادعاؤها فهي عربية النجاد. أما أمه فاطمة بنت جاسم فهي من عشيرة القراغول بطن من شمر الذين يرحلون في سهول العراق، وهو ثاني ولدين لأبويه، وقد اختضد أخوه البكر في مهد طفولته. وحدث أن صحيفة بغدادية قالت وهي تؤبن الرصافي: إن أباه كردى وأمّه عربية؛ فبرم بهذا التصريح صديق له من أساتذة الأدب فأشار فيما كتبه عنه في مجلة عراقية أن الفقيه كان قليل التحدث عن نفسه وعن أسرته؛ وأورد طرفاً من قصيدته التي مطلعها:

عهدتك شاعر العرب الحجيذا فمالك لا تطارحنا النشيدا

وخلص منها الكاتب إلى هذا الإنكار: «فمن قال لك إن أباه من أصل كذا وأمّه من أصل كذا؛ فقد أبعد...». فعادت تلك الجريدة ونشرت مقالا ضافياً حول العرق وكيف أنه لا علاقة له بمواهب الرجل، وأن إنتاجه العقلي هو الأصل، ولا عبرة بأن يكون الرصافي غير عربي الدم، فهو عربي الروح والنزعة والثقافة إلى غيرها من شجون الحديث.

والذي تلقينته منه — رحمه الله — قبل خمس وعشرين سنة وأنا أكتب سيرته في مجموعتي «الأدب العصري في العراق العربي» (١) إنه من أب كردى وأم عربية، ولم يكن يتخرج من هذا مطلقاً، حتى أنه اعتاد — كما أقرأني

(١) طبع منها جزآن في مصر (المطبعة السلفية سنة ١٩٢٣)

في بعض مكاتباته — كما سأله كاتب أو مؤلف عن ترجمته أن يحيله إلى هذا الكتاب . هذا كان شأنه بحيث لم يكن يحفل بحسب موروث أو جاه دنيوى بل كان همه في الحياة الجوهر لا العرض ، كما سنفصله في بحثنا .

وكان أبو الشاعر عبد الغنى عريقاً في الجيش العثماني يتكلم التركية والكردية غير العربية - ولا يعجز عن القراءة والكتابة بأبسط مقدار ، خاض غمار الحرب الروسية التركية ، فلما نجا من القتال مال إلى مسلك الدرك في صنف الخيالة ، ففضى معظم وقته نضوسفر على ما يتطلبه نظام الخدمة في قوة الدرك . والمنطبع في ذهن الولد عن والده أنه قد بداله تقياً ورعاً يواظب على الصلاة وقراءة الذكر الحكيم ، كما يؤثر عنه حدة الطبع ، والعنف في تأديب ابنه إذا خالف له رأياً .

ويظهر أن الطفل نشأ في حضن أمه فانطبع حبها في قلبه ، وأودعته خصائص نفسها وإن لم تقل الشعر وتكتب في السيرة ، أو لعله لانفراد به عطف الأم في غياب الأب في الأغلب من الأوقات غرز في نفسه هذا الأثر العميق لحنان الوالدة .

روى صديقه الأستاذ طه الراوى في مقاله عنه أنه زاره يوماً فرآه منفجلاً تنطق آثار الدموع في محجريه ، فسأله ما به . فقال : « سمعت قينة إلى جوار منزلى تغنى غناء شجيا ، فأذكرنى غناؤها البيت الذى كنت أعيش فيه ، وعلى الأخص أمى التى كانت تحنو على حنو ما عليه من مزيد ، وقد كانت تتعهدنى بالعناية جسماً وروحاً » .

وطالما ردد معروف لأصحابه أن أمه كانت مرجعه في كل شئ حتى بعد أن جاوز العقد الأول من حياته ؛ فهى التى أرسلته إلى الكتاب صبيّاً ، وظلت ترعى عمله في المدرسة حتى تسأله عما يدرس فيها . ولم تكن تهجع إلا إذا أمسكت به إلى جانبها . وكانت تتصاعد من صدره زفرة وهو يذكر شديد حبتها عليه وسهرها على راحته ، وعنايتها بطعامه وملبسه ، فيحن إلى كنفها مهما باعدت السنون بينه وبين طفولته . وكـم أسف لأن الخط لم يسعده على وفائها بأداء واجبه نحوها إلى أبعد حد . وخير تعزية له أنه كان يصلها ببعض الدراهم وهو غائب عنها في إقامته بدار الخلافة ؛ فلما اشتعلت الحرب العالمية ، وسقطت بغداد بيد الجيش البريطانى المحتل انقطعت عنه أخبارها ، وذكرها يتردد في صدره . وكان

عقله الباطن دله على مفارقتها الحياة في غيبة ولدها الحبيب ، فنطق وهو في الشام عام ١٩٢٠ ، يشهد لأعيب السياسة وتقلبات الأيام وقد اجتواه أصدقاؤه وأنكره معارفه ، لأن السياسة أفسدت بينه وبينهم ، بقصيدة تعد من عيون شعره ، وفيها كثير من فلسفة الحياة وحقائق الدنيا ، موضوعها وعنوانها « ضلال التاريخ » ن فيها إلى أمه ، ويتحرق إلى رؤيتها بكبد حرّى :

هل أنا من بعد التشاؤم (١) معرق (٢)
بأنى الى من بالرصافة شبيق
نميت لو أنى بها أتعلق
بهمى ، ودعى فوق خدى مطلق
بدمع به الأهداب تطفو وتغرق
ولكن بروحى عند ذكراك أشرق
تخطفه من بين جنبيّ سودق
إلى المجد ترمى أو إلى المجد تسبق
وأهلوه عنها يا أميمة أضيق
فليس بعار أنى فيه مخفق
وما وسعتها بعد بغداد جلق

لعمرك أقصانى الزمان المفرّق
خليلى هل من بالرصافة عالم
بلاد إذا ما هبت الريح نحوها
أبيت على شوق وقلبي موثق
إذا ما تذكرت العجزوز بكيتها
وما شرق بالدمع يا أمّ وحدّه
ويهفو بقلبي الشوق حتى كأنما
فيا أمّ صبراً إن لابتك همة
تضايق عنها الدهر مستعظماً لها
أكلف منها الدهر ما لا يطيقه
لقد صغرت بغداد عن أن تضمها

نظم الرصافي هذا النسيج ، وهو لا يعلم أن أمه قد غيبتها الثرى ، فلم عاد إلى بغداد بعد شهور افتقدها فلم يجدها . ولا أعلم أنه نظم شعراً في رثاء أمه ، وقد تنجّس العواطف وهى في عنفوان هيجانها ، فيكون هذا الحصر هو الشعر الحبيس المكروب ، وهو يقول : « إننى عند أوتى إلى بلدى لم أقو على رؤية البيت الذى كنت أعيش فيه مع والدتى ، ولم يسعنى جلدى حتى إلى سلوك الطريق المؤدية إليه . »

وعندما نتعرض لألوان شعر الرصافي ، سنقف عند تفاهة شعره الغرامى ، وضعف حرارة الحب فى أناشيده ، فنحلل هذا على ضوء موقفه من المرأة ، ومذهبه فى الجنس . ولكن هذا لم يمنعه من أن ينظم شعراً جيداً فى الدفاع عن حقوق النساء فى الحياة ، والانطلاق من عبودية الرجال ، والحملة على الحجاب ، إنما

عاطفة البنوة وتقديس الأمومة ظلت لصيقة به فانبثت في تضاعيف شعره ولا سيما في طور الأول من مجده الأدنى ؛ فله قصيدة يتناشدها الفتیان إذ تحفل بها جل الكتب المدرسية في لبنان وسورية والعراق وهي « التريية والأمهات » ؛ وفيها يقول :

ولم أر للخلائق من محل يهذبها كحضن الأمهات
فحضن الأم مدرسة تسامت بتريية البنين أو البنات
وأخلاق الوليد تقاس حسناً بأخلاق النساء والوالدات
وليس ربيب عالية المزايا كمثل ربيب سافلة الصفات
وليس النبت ينبت في جنان كمثل النبت ينبت في الفلاة
فيا صدر الفتاة رحبت صدراً فأنت مقر أسنى العاطفات
نراك إذا ضمت الطفل لوحاً يفوق جميع ألواح الحياة
إذا استند الوليد عليك لاحت تصاوير الحنان مصورات
لأخلاق الصبي بك انعكاس كما انعكس الخيال على المرآة
وما ضريان قلبك غير درس لتلقين الخصال الفاضلات

وإذا أردنا أن نتعرف شكل الرجل وسمته رأيناه طويل القامة، عظيم الألواح ممتلئ الجسم ، قوى البنية ، أسمر اللون ، أسود الشعر والعينين ، تشوب بياض عينييه حمرة خفيفة ، وظل بصره جاداً ، فلم يستعن بنظارات ، إلا أن عينييه أصيبتا بالمرض في أخريات أيامه ، وقد درج على التؤدة في مشيته حتى في اكتمال شبابه وصحته . وكان يحمل مخرصة على مألوف الذوات في عصره ، ثم صارت عصا يتوكأ عليها بعد أن هدته السنون وزعزعت هيكله الأوصاب .

بعد أن بلغ معروف الثالثة من عمره حملته أمه إلى كتاب في الحى الذى يقطنانه ، وكانت المعلمة في هذا الكتاب امرأة ، والتلاميذ الصغار من الجنسين . وتنقل بعده إلى عدة كتاتيب تيسر له في حجراتها الضيقة وأسلوبها العقيم . وفى رهبته من قصبة « المنلا » وصياحه أن يحتم القرآن العظيم . ولشدة حسه أبدع في رجولته في وصف هذه الخلايا التى تكون لبناً للدجاج حيناً ، أو كهوفاً ومغاوير في الأحايين .

وفي سن الثانية عشرة دخل مدرسة نظامية هي المدرسة الرشدية العسكرية ؛ لأن هوى الأهلين كان عهدئذ أن يتخرج أولادهم ضباطاً في الجيش . وهذا سبيل الجندية أو إمارة الجند . وكانت المدرسة الأميرية الوحيدة في مدينة السلام ، تعلم فيها ثلاث سنوات ثم رسب في الامتحان ؛ لأن التعليم في عمومهِ باللغة التركية ، لسان الحكومة ، فانزعج الحدث المراهق المذهن ، وغادر معهده إلى غير رجعة .

وبعد لأي اتجه اليافع اتجاهاً جديداً في الدرس الذي كانت أمه تحضه عليه ، فوضع العمامة على رأسه وأخذ يختلف إلى المدارس الدينية العلمية في جوار الجوامع وحجرات التكيا ؛ فتعلم باديء الرأي على الأستاذ محمود شكرى الألوسى الذي عرف بأنه علامة العراق ، واشتهر أديباً واسع الاطلاع مذ ألف كتابه « بلوغ الأرب في أحوال العرب » فمهد له المكانة المرموقة . وأحسب الألوسى صاحب اليد على الأدب العراقى بما ألقاه في روع هذا الفتى الموهوب من تعلق بالأدب وقد التفت إلى موهبته الفياضة وحافظته القوية ، ومثابرته على الدرس ، فصار أثيراً عنده ، وفتح له خزائن مكتبته فعب منها طالب الأدب الناشئ الظمان ، ما وسعه الوقت آناء الليل وأطراف النهار ، تمدد قريحة متوقدة وينهض به نبوغ مهياً ، فكان شاعر العراق المتفوق ، ومفخرته الخالدة .

ولنا أن نصرح بأن الرصافى تسمية أطلقها أستاذه شكرى عليه . وفي ذهن الناس في الزوراء مقام « معروف الكرخى » الصوفى الشهير ، فتنبأ المعلم لتلميذه أن سيسجل التاريخ « معروفًا رصافيًا » لا فى الصوفية التى تواضع عليها الفقهاء ، ولكن فى الشعر الفصيح ، وحرية الفكر التى عنت لها كل سلطة ظلم

تعلم الرصافى من الألوسى مبادئ العربية وشيئاً من أوائل الفروع ، واتصل بعد ذلك بجامعة من أشياخ ذلك العهد ، منهم الشيخ عباس القصاب ، والشيخ قاسم القيسى . وإذا استثنينا معلمه الأول الذى تخطى الجادة البالية فى نزعة إصلاحية سلفية فالآخرون من أساتيد الشاعر شديداً الحرص على التزام الخطة التى درج عليها من تلقمهم . وقد لازم صاحبنا شيخه المفضل اثنتى عشرة سنة وتخرج عليه فى علوم العربية وما يتصل بها ، حفظ المتون من الاجرومية إلى ألفية ابن مالك وشرح السيوطى عليها ، ومن هذه الرحلة بدأ ينظم الأبيات من بحر الرجز . روى عن نفسه لصديقه الأستاذ الراوى قال : « جبب إلىّ فى بدء دراستى العربية

التبسط في فهم الشواهد وشروحها وتذوق ما فيها من بلاغة ، فكنت أحفظ الشاهد وما يسبقه وما يلحقه من أبيات ، فاجتمع في حقيبتي وفي حافظتي منها شيء كثير ؛ وعندها كنت أحاول أن أنظم الشعر محاكياً ومحاذياً ، فقرضت الشعر وسنى دون السادسة عشرة ، فاجتمع عندي منه طائفة صالحة . وقد كان القريض يأخذ من وقتي الشيء الكثير . « عند هذا الاعتراف يلتفت الراوي فيعزو جزالة الشعر الرصافي ورسائنه وروعة ديابجه إلى هذه النشأة والانطباع ؛ إذ أن شعر الشواهد مقصور على شعر الجاهليين والحضرين والإسلاميين ، وهو أمتن شعر عرفته العربية .

ويؤثر عن معروف أنه ألف ، لشدة ولعه بالشواهد وجمعها ، كتاباً سماه « شواهد القطر » وقد أسعن في حفظها بحيث جاوز المخزون منها في حافظته عشرة آلاف بيت ، مما دعا أستاذه إلى أن يطلق عليه لقب « كتاب الشواهد » . وتسجل نشأة الشاعر أن قصيدته الأولى كانت في مدح معلمه .

أما بقية ما أوغل في نفس التلميذ من تعاليم الشيخ السلفي الكبير فهي هذه العزيمة الماضية في عيشة غليظة وصلابة في الفكرة ، ومقت للفخفة والمظاهر ، وعدم الركض وراء المال ، حتى ليؤثر عنه أنه في ذلك الطور من حياته وهو شاب حاد الشباب عنيفه كان كثير التهجد في الصلاة يتلو القرآن الكريم باكياً . وقد أراد الأستاذ عبد المسيح دريز في تعليقه على ديوان الرصافي سنة ١٩٣١ أن يفسر تأثير هذه الفلسفة في نفس الشاعر والمفكر فأوصلها إلى أن تسامت في القراءة والتعمق في الدرس والانغاس في العواطف الدينية إلا أن عشقاً دهمه في تلك المرحلة فمال به إلى وجهة أخرى . غير أنني أرى هذه الانطباعات ظهر تفاعلها في ذهن الأديب الحصب في مضامير حياته في الاجتماع والسياسة ، حتى إذا أدركته الشيخوخة ، واعتكف في كوخ له في قرية الفلوجة ناجيا من صخب بغداد وتكالب الحشعين وأفاعيل السياسيين والحاكين فيها ، تفرغ للتأليف ، وانصرف أكثر وقته لكتابة السيرة النبوية ، فوضع كتابه « اللغز الأعظم أو الحقيقة المحمدية » . ووجدناه في هذا الكتاب يناقش كثيراً من العقد في حياة محمد (ص) بالقياس إلى حيرات الزعماء السياسيين ومؤسسي الممالك .